سلام الترجمان

إن رحلة سلام الترجمان إلى سور الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية، وإن كان سببها الذى يذكره الجغرافيون العرب - كالقزويني وياقوت - على لسان الرحالة نفسه، أشبه بأسطورة خيالية. والظاهر أن حديثها كان مشهوراً في العصور الوسطى. وقصة هذه الرحلة أن سلاما الترجمان يزعم أن الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ أي ٨٤٢-٨٤٧م) رأى في المنام أن السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين (والذى يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج) مفتوح؛ فأرعبه هذا المنام، وأمر سلاما بأن يرحل ليتفقد السد. فسار الترجمان من مدينة سر من رأى، ومعه خمسون رجلا ومائتا بغل تحمل الزاد والماء؛ وكان الخليفة قد أعطاه كتاباً إلى حاكم أرمينية ليقضى حوائجهم ويسهل مهمتهم. فعنى هذا الحاكم بالرحالة ورجاله، وزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير. وكتب لهم هذا الحاكم إلى أمير إقليم اللان. وكتب هذا الأمير إلى فيلانشاه. وكتب لهم فيلانشاه إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين؛ فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يوماً؛ فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة وكانوا قد حملوا

معهم بإشارة الأدلاء خلا لتخفيف هذه الرائحة. وسار الركب في تلك الأرض عشرة أيام ثم وصلوا إلى إقليم فيه مدن خراب، وساروا فيها سبعة وعشرين يوما. وقال الأدلاء إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذى خرب تلك المدن. وانتهوا إلى جبل فيه السور المنشود. وعلى مقربة منه حصون تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية؛ ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين قط. وتقدم الركب إلى جبل لا نبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعا. وفي الوادي باب ضخم جداً من الحديد والنحاس، عليه قفل طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة، وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل. وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب في كل جمعة ومعه عشرة فرسان، مع كل منهم مرزبة من حديد، فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة؛ ليسمع من يسكنون خلفه، فيعلموا أن للباب حفظة، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثًا.

ولما فرغ سلام الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور رجعوا إلى سر من رأى مارين بخراسان. وكان غيابهم في هذه الرحلة ثمانية عشر شهراً.

وقد ذكر المستشرق الفرنسي كرادى فو Carra de Vaux أن من المحتمل أن هذه الرحلة كانت إلى الحصون الواقعة في جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند (أو باب الأبواب)، في إقليم داغستان غربي بحر قزوين. ومهما يكن من الأمر فإننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات في كتب التاريخ والجغرافية، ولا سيما «نزهة المشتاق» للإدريسى و«معجم البلدان» لياقوت.

***

ومن غريب ما نقله أبو حامد الأندلسي في كتاب «العجائب» عن سلام الترجمان أنه قال:

«وأقمت عنـد ملك الخزر أيامًا، ورأيت أنـهم اصطادوا سمكة عظيـمة جدًا وجذبوها الجبال، فانفتح أذن السمكـة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجـوها إلى البر وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصـيح وقد خلق الله تعالى في وسطهـا غشاء كالثوب الـصفيق من سرتها إلى ركبتها كأنه إزار مشدود على وسطها، فأمسكوها حتى ماتت».

وقد تساءل الدكـتور حسين فوزى في كتـابه «حديث السندباد القديم». (ص١٣٥) عن تفـسير مـا رأى سلام التـرجمـان عند ملك الخزر وكـتب في ذلك: «أيكون الملك قـد عـرض على خليفـة المسلمين منظرًا تمـثيليًـا من نوع «البانتوميم» احتفاء به واحتفالاً بقـدومه، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة؟ أو أن ملك الخزر كان ماجنًا مـهزارًا لا يرى عيبًا أن يسخر من ضيـفه فيدخل عليه منظر الغانية التى تخرج من أذن سمكة عظيمة جدا، فيبتلع (أى فيصدق) سلام المنظر والغانية والسمكة الكبـيرة؟» وعندنا أن من المحتمل أيضًا أن يكون سلام التـرجمان سـمع من بعض العامـة في بلاد الخزر حديث تـلك السمكة فعلقت بذهنه ونسبها إلى مشاهداته الخاصة.

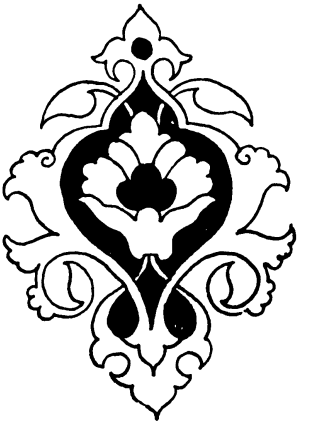

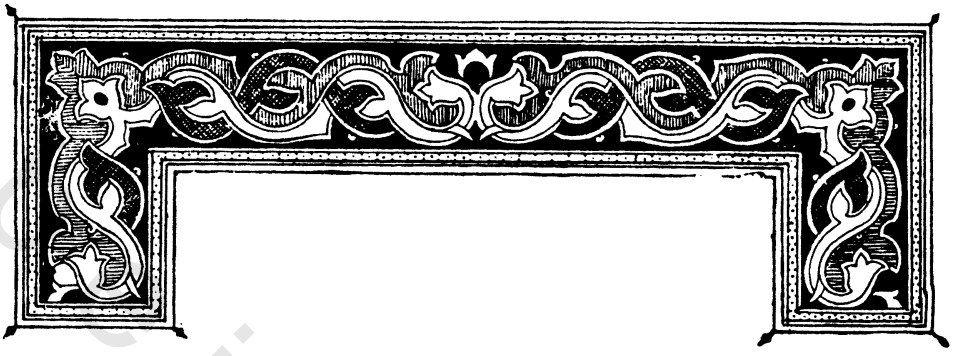

ابن وهب القرشى

كـان ابن وهب من ذوى الثـروة والجـاه في العـراق ومن ولد هبـار بن الأسود. وتذكـر بعض المصادر التاريخـية أنه قام برحلة إلـى الصين نحو سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، فترك مـدينة البصرة عند ما خربهـا الزنج وخرج من ميناء سـيراف علـى بعض مراكب هـندية. وساح طويـلا في ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى مـدينة خانفو (كنتـون) بمملكة الصين. ثم تقدم إلى مدينة خـمدان عـاصمـة تلك المملكة، وتقع هذه المدينة على مـقـدار شهـرين من خانفـو. والتمس ابن وهب مواجهة الإمبراطور؛ ولكنه لم يفلح إلا بعد انتظار طويل، وبعد أن أرسل الإمـبراطور إلى حاكم خـانفو يأمره بالبـحث عن حقيـقة ابن وهب والاستفسار من التجار العرب عما يدعيه من قرابته لنبي المسلمين. فلما كتب الحـاكم بصحـة نسبه أكـرم الإمبراطور مـثواه وأذن له في الوصـول إليه وناقشه في الدين والسياسة؛ ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء، مثل نوح في السفـينة، وموسى وبنى إسرائيل، وعيـسى على حماره والحواريون مـعه، ثم

محـمد على جـمل وأصحـابه محـدقون به[1]. وأمر له بعـد ذلك بالهدايا النفسية. وأوصى به حاكم خانفو.

ولا نعرف أن ابن وهـب دون ما شاهده في رحلتـه؛ ولكن لا شك في أنه تحدث عنها. وقد أفاد من هذا الحديث مؤلف اسمه أبو زيد حسن، سوف يأتي الكلام عليـه. كمـا أشار المسـعودي إلى هذه الرحلة فـي كتابـه «مروج الذهب»، في الفـصل الذى عـقـده للحـديث عن ملوك الصين. وقـد رجح المستشرق رينو Reinaud أن أبا زيد حسن لقى المسعودي وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية.

(١) انظر مقـالنا «السيرة في الفن الإسـلامي» في عدد مايو سنة ١٩٤٠ من مـجلة المقتطف، وراجع كتابنا «الصين وفنون الإسلام» ص١٢ و ٣٩.

obeikandl.com

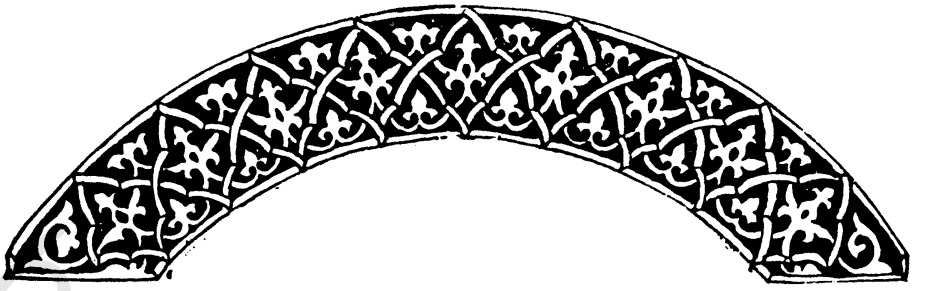

سليمان السيرافى

تشير المصادر التاريخية في اللغتين العربية والصينية إلى وجود جموع من المسلمين في الصين في عـهد أسـرة تنج التى حكمت الصين بين عـامى ٦١٨ و٩٠٦م. وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور.

وكان التجار المسلمون المنصرفون إلى الشرق الأقصى يبحرون من البصرة ومن سيـراف على الخليج الفارسي أو «الخليـج الصيني» كمـا كانوا يسـمونه أحيـانًا في القرن الثالث الهـجري (التاسع الميـلادي). وكانت السفن الصـينية الكبيرة تصل إلى ثغر سيراف، وتشحن بالبضائع الواردة من البصرة؛ ثم تتجه إلى ساحل عمان وتعبر المحيط الهندي مارة بسرنديب وجزائر البحار الجنوبية، حتى تصل إلى مدينة خانفـو، حيث كانت تعيش جالية إسلامـية وافرة العدد عظيمة الشأن. وفي كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه عبارة تفيد أن بعض تجار المسلمين وصلوا إلى شبه جزيرة كوريا.

والمعروف أن قـدوم التجار الصـينين أنفسهم إلى الخليج الفـارسي أخذ يهبط تدريجيًـا منذ بداية القرن الثالث الهجـري (التاسع الميلادي)؛ على حين زاد سفر العرب إلى البحار الجنوبية. ثـم حدث أن خرب ثغر خانفو نحو سنة

٢٦٤هـ (٨٧٨م) بسبب بعض الاضطرابات في بلاد الصين؛ فقتل كثير من المسلمين، ولم تعد المواصلات البحرية تامة الانتظام بين الصين والشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وأصبحت السفن من الجانبين لا تبحر إلا إلى مدينة في منتصف الطريق بين البلدين تسمى «كلاه»، اشتهرت بمناجم القصدير. وأكبر الظن أنها كانت من ثغور الشاطئ الغربي في ملقا.

وقد أشار أبو زيد حسن والمسعودى إلى هذه الحالة في حديثهما عن رجل من أهل مدينة سمرقند «خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى وصل إلى بلاد عمان، وركب إلى بلاد «كلاه» وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليها تنتهى مراكب الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك؛ وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة... ولما عدم العدل وفسدت النيات... التقى الفريقان جميعًا في هذا النصف. ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلاه في مراكب الصين إلى مدينة خانفو».

***

ومن المسلمين الذين زاروا الهند والصين عدة مرات رحالة عربي اسمه سليمان، لا نكاد نعرف شيئًا عن ترجمة حياته؛ ولكن وصف سياحته في الهند والصين انتهى إلينا. فقد كتبه سنة ٢٣٧هـ (٨٥١م) - ولهذا الوصف ذيل وضعه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن، واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين، ولا سيما ابن وهب الذى مر ذكره. وقد طبعت هذه الرحلة

سنة ١٨١١ على يد المستشرق لانجلس Langlès ثم نشرها المستشرق رينو Re-inaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥. كما أحاط بها المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتى ترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها ونشرها في مؤلف من مجلدين.

وتحدث الدكتور حسين فوزى عن هذه الرحلة في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص٢١-٣٢) وقال إنها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع. وربما كانت الأثر العربي الوحيد الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير والطريق الملاحى إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب؛ وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والاصطخرى وابن حوقل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التى يذكرونها، فإنهم أيضا ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر».

وتمتاز رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية ، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية، ولأهم المنتجات في الهند وسرنديب وجاوه والصين، مع قلة الخرافات والأساطير التى تكثر في أحاديث البحارة. وتمتازان أيضا بالأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر بعد الميلاد). من ذلك أن مدينة خانفو، أكبر أسواق الصين حينئذ، كان فيها رجل مسلم «يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية... وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان

المسلمين» والواقع أن المصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات، وبأنه امتد إلى الجاليات الإسلامية الأخرى في سائر مدن الصين؛ فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها وإن كانت الحكومة الصينية احتفظت لنفسها بحق النظر في الجرائم التى قد يترتب عليها النفى أو الإعدام. والحق أن الاختصاصيين في الدراسات الصينية من المستشرقين ثبت عندهم صدق كثير مما جاء في حديث سليمان عن أحوال الصين الاجتماعية.

ومن الطريف أن سليمان السيرافى أول مؤلف غير صيني يشير إلى الشاى. وذلك حين يذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويباع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه «ساخ».

وقال سليمان في وصف بعض جزائر المحيط الهندي أن لأهلها ذهبًا كثيرًا «وأكلهم النار جيل وبه يتأدمون ويدّهنون، وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوّج اثنين، وكذلك إن قتل خمسين زوّج خمسين امرأة بخمسين قحفًا وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر».

ومما ذكره أبو زيد حسن، في الذيل الذى وضعه لرحلة سليمان، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر كانت إذا وصلت جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من السلع إلى مراكب خاصة تحمله إلى مصر، وتسمى مراكب القلزم، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة في شمالي البحر الأحمر.

وأتى أبو زيد بكثير من أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيطين الهندى والهادى وتحدث عن العنبر واللؤلؤ والمسك ومصادرها. وأشار إلى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان وذلك بسبب قيام ثورات فيها.

ابن فضلان

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد. كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين وللقائد محمد بن سليمان، الذى أفلح في هزم الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م). ولسنا نعرف من سيرة ابن فضلان شيئًا كثيرًا. والذى لا نشك فيه أنه قام سنة ٣٠٩هـ (٩٢١م) برحلة إلى بلاد البلغار. وهم الشعب الذى أسس في بداءة العصور الوسطى دولتين: أقدمهما في حوض الفولجا الأوسط (أو نهر اتل كما تسميه المصادر العربية)، والأخرى في حوض الطونة. والأولى هي التى زارها ابن فضلان وانتشر فيها الإسلام. وتطلق كلمة بلغار على الشعب وعلى البلاد، وعلى عاصمتها، التى كانت تقع شرقي نهر الفولجا، والتى لا يزال بعض أطلالها قائمًا على مقربة من مدينة قازان الحالية وعلى نحو ستة كيلو مترات من شاطيء الفولجا الأيسر، وحيث الدرجة خمس وخمسون من العرض الشمالي وست وستون من الطول الشرقي. ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى اعتنق البلغار الإسلام. فابن رسته الذى ألف كتابه «الأعلاق النفسية» حول سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) ذكر فيه أن «أكثرهم ينتحلون دين الإسلام، وفي محالهم

مساجد ومكـاتب ولهم مؤذنون وأئمة. . . وملابسهم شبـيهة بملابس المسلمين ولهم مقابـر مثل مقابر المسلمين». أمـا رحلة ابن فضلان فيبـدو منها أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل زيارة هذا الرحالة.

والحق أن لهذه الرحلة شأنًا خاصًا؛ لأن ابن فضلان كان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البلغار، بعد أن أسلم وكتب إلى الخليفة يسأله «أن يبـعث إليه من يفقهـه في الدين، ويعرفه شـرائع الإسلام ويبنى له مسجدًا، وينصـب له منبرًا ليقيم عليه الدعوة في جـميع بلده وأقطار ملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له». وقد أجابه الخليفة إلى طلبه. وأرسل إليـه هذه السفارة، التى كان ابن فضـلان الخبير الديني فـيها، والتى كان على رأسها منـدوب من الخليفة لبحث الأمور السياسـية والحربية. وغـادر المندوبون بغـداد في ١١ من صـفـر سنة ٣٠٩هـ (٢١ من يونيـه سنة ٩٢١)، متجهين إلى بخاري فخوارزم فبلاد البلغار، حيث وصلوا في ١٢ من محرم سنة ٣١٠هـ (١٢ من مايو سنة ٩٢٢).

ورسالة ابن فضلان في وصف هذه الرحلة نـقل عنها المؤلفون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كالاصطخرى والمسعودى. ثم نقل ياقوت الحموى أجزاء كبيرة منها فيما كتبه عن مادة «أتل» و«باشغرد» و«بلغار» و«خزر» و«خوارزم». وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرة بعناية المستشرق فرهن Fraehn في سنت بطرسبـورج سنة ١٨٢٣ ومعهـا مقتطفـات أخرى مما كتـبه المسلمون عن الروس[١]. وحديثًا أفاد منها المستشرق الروسى برتولد في المقال

(١) Ch.M. Fraehn: Ibn Fozlan's und and anderer Araber Araber Berichte uber die Russen alterer Zeit (St. Peterabourg 1823)

الذى كتبه عن «البلغار» في دائرة المعارف الإسلامـية، ثم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في مقالين حديثين عن البلغـار المسلمين. وقد عثر العالم التركى أحمد زكى الوليـدى منذ عشرة أعوام على مخـطوط من رحلة ابن فضلان أو فى مادته من المقـتبسـات المعروفة وله مقـدمة وصف فيـها رحلته عبـر فارس وبخارى وخـوارزم في طريقة إلى بلاد البلغار كمـا أنه يحتوى على كثـير من الزيادات والتفصيلات.

والحق أن ابن فضـلان ترك لنا في وصف رحلته صورة واضحـة للبلغار وحضارتهم وعادتهم وتجارتهم. ويشهد مـا كتبه في هذا الصدد بأنهم كانوا لا يزالون دون مـا وصل إليه المسلمـون في مـدينتهم، وإن بدت بعض عـاداتهم طريفة، كـأن يأكل كل واحد من مائدته لا يشـاركه فيهـا أحد ولا يتناول من مائدة غـيره شيئًـا، وكلبسهم القلانس يـرفعونها عن الرأس ويجـعلونها تحت الإبط للتحية وإظهار الاحترام.

ويلوح أن علاقة ملك البلغار بشعبه كـانت علاقة أبوية وديمقراطية؛ فقد دون ابن فضلان أن «كل من زرع شـيئًا أخذه لنفسـه، ليس للملك فيه حق؛ غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور. وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة... وكلهم يلبسون القلانس فإذا ركب الملك ركب وحده بغـير غلام ولا أحد مـعه. فإذا اجـتاز في السوق لم يبق أحـد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت أبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم؛ وكـذلك كل من يدخل على الملك من صغيـر وكبيـر حتى أولاده وإخوته، ساعة يقـع نظرهم عليه، يأخذون فلانسهم فيـجعلونها تحت آباطهم ثم يومئون إليه برؤوسهم ويجلسـون ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس؛ وكل

من جلس بين يديه يجلس باركـا ولا يلبس قلنسوته ولا يظهرها حـتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك.

والظاهر أن السِمَن كـان محبـوبًا عند البلغار؛ وقد كـان ملكهم بدينًا. ورأى ابن فضلان عندهم تفـاحا «أخضر شديدة الحموضـة جدًا تأكله الجوارى فيـسمن» ومما أتعب ابن فضـلان في مهمتـه الدينية أن الرجال والنسـاء كانوا ينزلون النهر فيغتـسلون جميعًا عراة لا يستتر بعضـهم من بعض. وقد اجتهد في منع ذلك فلم يوفق؛ وكان مـركز المرأة بينهم عاليًـا، وكانت الملكو تجلس إلى جانب الملك في المناسبات الرسمية.

وطبيعي أن هذا الرحالة عرض في رسالته لطول الليل شتاءً وطول النهار صيـفًا وتـعذر تحديـد ساعـات الصلاة فكتب في هذا الصـدد: «ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتى لنتحدث؛ فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء؛ فإذا بالأذان، فخـرجنا من القبة، وقد طلع الفجر. فقلت للمؤذن أي شيء أذنت؟ قال الفجر. قلت فعـشاء الأخيرة. قال نصليها مع المغرب. قلت فـالليل؟ قال كما ترى، وقـد كان أقصر من هذا وقـد آخذ الآن في الطول. . .إلخ» ونقـل ابن فـضلان عن مـلك البلغـار «أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قومًا يقال لهم ويسو؛ الليل عندهم أقل من ساعة».

والغريب أن ابن فضلان لم يكتب في رسالته شيئًا عن نتائج هذه الرحلة من الوجهتين السيـاسية والحربية؛ فلسنا ندرى هل ساعـد المسلمون البلغار في تشييد الحصون المطلوبـة أم لا. وأكبر الظن أن ملك البلغار كان يريد بناء تلك الحصـون ليحتمى فـيها من ملك الخـزر بوجه خاص. وكـان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغـار وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفـولجا ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعًا لهم. وعلى كل حال فإن

رحلة ابن فضلان من أقدم مـا وصل إلينا عن بلاد الروسيا. بل إننا لا نعرف عن رسالة سـبقوه في هـذه الجولة ما خـلا أوتير Ohther النرويجى الذى زار الإقليم الواقع شمالي الروسيا حـول البحر الأبيض الروسى؛ وذلك قبل رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار بنحو ستين سنة.

وقد وصف ابن فـضلان بعض قدماء الـروس الذين شاهدهم في مكان على نهر الفلـجا حين قدموا لـلتجارة مع البلغـار. وكتب المستـشرق الروسى فلاديميـر مينورسكى V. Minorsky في هذا الصدد أن ابـن فضلان كـان دقيق الملاحظة فوصف حفلة دفن زعيم روسى وصفًا مفصلا دقيقًا حتى لقد استطاع أحد رسامى الروسى منذ خـمسين عامًا أن يرسم، اعـتمادًا على هذا الوصف صـورة لهذا المشـهـد الرهيب تزين الآن أحـد جدران المتـحف التـاريخي في موسكو.

وقد زار بلاد البلغـار بعد ابن فضـلان رحالة وعلماء مـسلمون؛ ولكن معظمـهم لم يدوّن عنها شـيئًا كـثيرًا. ومنهم عـبد الله أبو حـامد الأندلسي الغرناطى صاحب كتاب «تحفة الألبـاب ونخبة الإعجاب» وقد زار بلاد البلغار سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) وصحب قاضـيها يعقوب بن النعـمان؛ وذكر أن هذا القاضى ألف كتـابًا في تاريخ البلغار؛ ولكنا لا نعرف عن هذا الكتاب شـيئًا. على أبا حامد الأندلـسي نفسه لم يكنب عن رحلته إلا بعض قـصص ضئيلة الشأن نشرها المستشرق دورن[1] B. Dorn.

(١) راجع Melanges Asiatiques, t. VI (Saint-Petersbourg 1869)

أبو دُلَف

هو أبو دلف الخزرجى الينبـوعى مسعـر بن مهلهل. كان شاعـرًا وأديبًا ورحالة؛ اتصل بـالأمير السـامانى بن أحمـد. وأوفده هذا الأمـير إلى الصين حول سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) مع بعثة كان أحـد الأمراء الصينيين قد أرسلها إلى البلاط الـسامانى ليـخطب ابنة أميـر بخارى. وقـد زار أبو دلف بلاد الهند، وآخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية.

ولسنا نعرف عنه شيئًا كثيرًا ما عـدا اتصاله بالصاحب إسماعيل بن عباد وزير بنى بويه. وهو الذى قـدم إليـه أبو دلف قـصيـدة طويلة في حـيل بنى ساسان وأساليب حياتهم. والمعروف أن اسم «بنى ساسان» أطلق على قوم من العيارين المستـهترين والشطار المحتالين، كانوا يطوفـون الأقاليم، ويتفننون في اخـتراع الحـيل للحـصول على المال (راجع مـادة سـاسان في دائرة المعـارف الإسلامية وما ذكر فيها من مراجع).

وفي بعض أبيات هذه القـصيدة الطويلة إشارة إلى الرحـلات والأسفار الطويلة. ومن ذلك الأبيات الآتية منقولة من كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبى:

ومن كـــان من الأحـــرا ر يـسلـو سلـوة الحـــــر
ولا ســيـمـــا في الغــربة أودى أكـــثـــر الـعـــمـــر
وشـــاهـدت أعـــاجـــينا وألـــوانًـــا مـن الـــدهـــر
فطـابت بالـنوى نفـــــسي على الإمـــســـاك والـفطر
علـى أنى من الـقـــوم الـ ـبـــهـــاليـل بنى الغـــر
فـنحـن الـنـاس كل الـنـا س في البـر وفـي البـحـر
أخـــذنـا جـــزية الخـلق من الصـين إلى مـــصـــر
إلى طـنجـــة، بل فـي كـ ـل أرض خـيلـنا تسـرى
إذا ضـــــاق بـنـا قطـر نـزل عـــنـه إلـــى قـطـــر
لنا الـدنيـا بما فـيـــهـــا من الإســـلام والـكفـــر
فـنصـطـاف علـى الـثلـج ونشـــتـــو بلـد التـــمـــر

وقد حـفظ لنا القزوينى ويـاقوت وابن النديم مقـتطفات يظن أنـها من وصف أبى دلف لرحلتـه في الصين والهند[1]. وهو وصف يشـهـد - على إيجازه - بأن هذا الأديب الرحالة كان دقيق المـلاحظة. وحسبنا مثلا أنه فطن إلى أن الخزف الصينى كان يقلد في بعض البلاد الأخرى، ولا سيما في إيران وملبار، ولكن الأوانى الصـينية كانت تفضل في الأسـواق على كل ما يصنع تقليدًا لـها. وقد انتـشـر هذا الوصـف سـنة ١٨٤٥ ومعـه ترجمـة لاتينية بعناية المستشرق فون شلوزر Kurd von Schloezer ثم ترجمه المسـتشرق فراند

(١) راجع مادة مسعر بن مهلهل في دائرة المعارف الإسلامية.

Ferrand في مجموعـة الرحلات والنصوص الجغرافيـة التى نشرها عن الشرق الأقصى وخصه ماركارت M.J. Marquart بدراسة وافية في مجموعة المقالات التى كتبت ذكـرى وتكريمًا للمستشـرق ساخاو (Festschrift Sachau). وفضلا عن ذلك فإن المستـشرق وستنفلد F. Wustenfeld كان قد كـتب في منتصف القرن الماضى مقالا فـي مجلة علم تقويم البلدان المقارن درس فيه مـا كتبه أبو دلف عن القبائل التركية[١].

(١) راجع F. Wustenfeld: Des Abu Dolef Misar Berichr uber die turkischen Horden (Zeitschr. Fur vwrgl. Erdkunde, I, Magdburg 1842).

obeikandl.com